نهاية العصور الكلاسيكية وبداية العصور الوسطى
فى
الغرب الأوربى

على الغمراوى (*)

ليس هناك فى الدراسات التاريخية قضية أكثر إثارة للشك من قضية البحث عن نهاية للعصور القديمة (الكلاسيكية) وبداية للعصور الوسطى فى الغرب الأوربى . وقد تبدو هذه القضية لأول وهلة قضية شكلية تتوجب علينا المبادرة بنظرها قبل الخوض فى أية قضية أخرى متعلقة بدراسة التاريخ الوسيط ، ولكنها فى الحقيقة قضية موضوعية لا يُنظر فيها دون التعرف على أحوال الدولة الرومانية فى عصرها الإمبراطورى الأخير ، لأن الفصل فى هذه القضية رهين بالبحث فى تاريخ الإمبراطورية ، وإن كان لا يؤدى بحد ذاته إلى منطوق الحكم ، لأن المسألة هنا ليست مسألة بداية ونهاية بالمعنى المألوف .

منذ أن طرق نيقولا ماكيافيلى Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ – ١٥٢٧) فى القرن السادس عشر وكرستوف كيلر (باللاتينية سيلاريوس Christoph Keller (Cellarius (١٦٣٨ – ١٧٠٧) فى القرن السابع عشر هذا الموضوع والمناقشات حوله لم تهدأ حتى الآن . لقد طرح الباحثون والنقاد بعدهما منذ القرن السابع عشر وقائع عديدة وتواريخ شتى لبداية العصور الوسطى يعود معظمها فى الواقع إلى العصر الرومانى الأخير .

(*) هذا المقال مقتطف منقح ومزيد بقلم المؤلف نفسه قبيل وفاته من كتابه : مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٧ .

وتراوحت هذه الوقائع والتواريخ حسب وجهات النظر بين اعتناق قسطنطين الأول Constantinus 1 للنصرانية – على فرض صحة الروايات المعاصرة – فى سنة ٣١٢ ، واتفاقه مع ليسينيوس Licinius على حرية العقيدة فى ميلانو سنة ٣١٣ ، وتوليه حكم الإمبراطورية فى سنة ٣٢٤ ، وانعقاد المجمع المسكونى الأول فى عهده فى نيقية Nicaea سنة ٣٢٥ ، وتأسيسه لروما الجديدة Roma Nova فى سنة ٣٣٠ وهى التى سميت على اسمه القسطنطينية (مدينة قسطنطين) Constantinople ، واجتياح الهون Hunni من عشائر المغول لشرق أوربا فى سنة ٣٧٥ ، وانتصار القوط الغربيين (الفيزيقوط Wisigothi على الإمبراطور فالنز Valens ومقتله فى موقعة أدرنة (مدينة هادريان) Adrianople فى سنة ٣٧٨ .

وبين إعلان النصرانية عقيدة رسمية للإمبراطورية الرومانية فى سنة ٣٨٠ فى عهد ثيودوسيوس الأول Theodosius 1 ، وإلغائه لقب « الكاهن الأعظم » الوثنى Pontifex Maximus فى السنة التالية (وإن عاد بعد ذلك ليكون من ألقاب البابا) ، ووفاة ثيودوسيوس فى سنة ٣٩٥ وتقسيم الإمبراطورية بين ولديه أركاديوس Arcadius لحكم الشرق وهونوريوس Honorius لحكم الغرب ، وغزو القوط الغربيين لروما بقيادة ألاريش (ألارك) Alarich في سنة ٤١٠ ، ووفاة الإمبراطور الغربى فالنتنيان الثالث Valentinian (us) lll ونهاية حكم الأسرة الثيودوسية فى سنة ٤٥٤ .

وبين عزل آخر الحكام الغربيين الإمبراطور الفتى رومولوس Romulus Augustulus فى سنة ٤٧٦ على يد الجرمانى الأسكيرى أودفاكر Odo (v) acer الذى صار ملكا لإيطاليا ، وصعود ملك الجرمان الفرنجة (الفرنسية والفرنسيس) Franci شلودفيج (كلوفيس)الأول Chlodwig (Clovis) 1 إلى السلطة وتثبيت الأسرة الميروفينجية فى سنة ٤٨١ فى حكم غالة Gallia التى سميت على اسمهم فرنسيا Francia(فرنسا) ، واعتناقه النصرانية على المذهب الكاثوليكى ربما فى سنة ٤٩٦ ، وإغلاق الإمبراطور جوستينيان الأول Justinian (us) 1 للأكاديمية (معقل الوثنية) فى

أثينا فى سنة ٥٢٩ ، وجلوس البابا جريجورى الأول Gregorius (Gregory) I على الأريكة البابوية فى سنة ٥٩٠ ، وتتويج البابا ليو الثالث Leo III لملك الفرنجة الكارولينجيين شارلمان Carolus Magnus (Charlemagne) امبراطورا على الغرب فى سنة ٨٠٠ .

وغنى عن القول أن هذه التواريخ المفردة المطروحة وغيرها لا تدل بحد ذاتها دلالة قاطعة على نهاية عصر وبداية عصر آخر ، لأنها إن فعلت فإنما تدل بذلك على انقطاع فى التقدم التاريخى Historical Process ، وهذا أمر لايقبله العقل ، بل هو ضرب من المستحيل ، ولذلك فالبحث عن حد فاصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى فى موعد بعينه أو حدث بعينه تقدير تاريخى يفتقر إلى الصواب .

صحيح أن كل حقبة من حقب دوقلديانوس Diocletianus فى القرن الثالث وقسطنطين الأول فى القرن الرابع وشارلمان على مدرج القرنين الثامن والتاسع يمكن بحد ذاتها وبما تحتوى عليه من أحداث أن تكون مرحلة تحول مهمة فى مجرى التاريخ لا يختلف عليها المؤرخون اختلافا جوهريا .

ولكن القضية لها من غير شك بُعد آخر أوجده منظور المؤرخين المحدثين منذ أن طلع كريستوف كيلر فى أواخر القرن السابع عشر بتقسيمه الثلاثى لعصور التاريخ إلى عصر قديم وعصر وسيط وعصر حديث . وهو منظور يدفعنا إلى اختيار صعب قد لا يستقيم فى جميع الأحوال مع طبيعة العملية التاريخية التى تُفهم تحت مصنفات من نوع آخر .

ولذلك فالمشكلة قبل كل شىء مشكلة منظورات تقليدية جرى عليها عرف المؤرخين منذ أن وعوا على تسجيل التاريخ . منظورات نبعت فى بادىء الأمر من اعتبارات كرونولوجية Chronological صرفة قائمة على أسس من الأسطورة والفلسفة وفكرة الدولة ...

فهناك التقديرات الجنيالوجية Genealogical التى وصلتنا منذ أقدم العصور ، وما زالت سارية المفعول فى فهمنا لمراحل التاريخ ، الذى قُسم على أساسها إلى أزمان أحكام وأسرات . وهذا هو ما عُرف بتاريخ الأنساب .

وهناك التقديرات الميثولوجية Mythological ، كما فى فكرة العصور الخمسة الواردة عند الشاعر اليونانى القديم هسيود Hesiod ، الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد ، فى قصيدة « الأعمال والأيام » ΕΡΓΑ ΚΑΙ ΗΜΕΡΑΙ وهى : العصر الذهبى ، والعصر الفضى والعصر البرونزى ، وعصر الأبطال الذى نشبت فيه حرب طروادة بين اليونانيين والطرواديين ، والعصر الحديدى .

وهذه الحرب الطروادية ، التى كان النقاد يعتبرونها حربا أسطورية ، وأظهرت الكشوف الأثرية أنها كانت حربا تاريخية شنها اليونانيون فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد على أبناء عمومتهم الطرواديين ، الذين كانوا قد استقروا فى الشمال الغربى من أسيا الصغرى زمن الهجرات الهندوأوربية ، للقضاء على نفوذهم التجارى فى بحر أيجة والبحر المتوسط ، نرى هسيود ، ولابد أنه كان مثل منشدى « الإلياذة » على علم بواقعها التاريخى رغم تفاصيلها الروائية والأسطورية ، يُفرد لها عصرا قائماً بذاته ضمن هذا التقسيم الخماسى الذى لايدل فيه على ماهية العصور الذهبية والفضية والبطولية سوى التعبير عن وجده وحنينه إلى عصور أجداده البهية التى تدهورت على ممر الزمن ، حتى حل العصر الحديدى رمز البؤس والشواش اللذين عما فى القرن الحادى عشر عالم اليونان بعد الحرب .

وفكرة تقسيم الماضى هذه إلى عصور خمسة قال بها أيضاً بعد ذلك عالم اللاهوت السكندرى أوريجين Origen فى القرن الثالث الميلادى ، ولكن على نسق تاريخى مؤسس على الأخبار الواردة فى التوراة ، فقسم التاريخ إلى عصور آدم ونوح وابراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام .

وهناك فكرة التتابـــع الحتمى لدساتير الدولة عند المؤرخ اليونانى بوليبيوس Polybius الذى عاش على مفترق القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، وهو تتابع لصيق بما سماه « التاريخ البراجماتى » ΙΣΤΟΡΙΑ ΠΡΑΓΜΑΤΙΚΗ وقصد به الحوادث السياسية والحربية .

وإذا كانت الحقب التاريخية تعود حسب النظرية اليونانية القديمة مرة أخرى فى سياق دائرى متكرر ، فيقال علي نحو دارج بأن التاريخ يعيد نفسه ، فإن الفكر النصرانى جاء بتصور طولى مفرد لسياق التاريخ منذ بدء الخليقة حتى يوم الحساب ، ومعنى هذا أن التاريخ لايعيد نفسه أبداً ، لأنه إن فعل ذلك فقد يتكرر المسيح على ممر الزمن ، وهذا ما لايمكن أن يحدث ، لأن المسيح جاء مرة واحدة ولن يأتى مسيح آخر سوى المسيح الدجال .

ومازال هذا التصور يمثل طرف النقيض في قضية التقدم التاريخى الدائرة فى أوساط المفكرين حتى اليوم . فمازال المفكرون يسألون حتى اليوم إذا كان التاريخ يعيد نفسه أم لا . ونظن أن الأجيال القادمة سوف تطرح دائماً وأبدا هذا السؤال .

وعلى ذلك فكل عصر من العصور التاريخية إنما يكون من وجهة النظر النصرانية عصراً مفرداً ، سواء قسم الإنسان تاريخ العالم إلى خمسة عصور كما فعل عالم اللاهوت السكندرى أوريجين فى القرن الثالث . أو قسمه إلى ستة عصور كما فعل معاصره عالم اللاهوت الرومانى هيبوليتوس Hippolytus تبعا لأيام الخليقة الستة فى التـوراة ، فأضـاف عصـر داود عليه السلام إلى العصور الخمسة السابقة . أو قسمه إلـــى أربـــع دول كـــما فعل عالم اللاهوت الدالماتى (القديس) هيرونيم (جيروم) Hieronymus (Jerome) فى أواخر القرن الرابع حسب التفسير النصرانى لرؤيا نبوخذ نصر ورؤيا النبى دانيال فى العهد القديم ، فقسم الدول إلى دولة الأشوريين والبابليين ، ودولة الميديين والفرس . ودولة المقدونيين ، ودولة الرومان (تفصيلا للموضوع

انظر على الغمراوى ، « نظرات هيستوريوغرافية فى التاريخ الأوربى فيما قبل القرن العاشر » : مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت ، العدد الثانى لسنة ١٩٧٢ ، ص ٢٣٣) .

ومنذ أواخر القرن السابع عشر أخذت هذه التقسيمات اللاهوتية تخفت فى زحام الآراء الفلسفية الجديدة . ولكن على خلاف جميع التصورات فرض تقسيم التاريخ الثلاثى الذى وضعه كيلر إلى عصر قديم وعصر وسيط وعصر حديث .. فرض نفسه على النظرة الحديثة إلى الماضى ، ومازال مسيطرا حتى الآن فى علم التاريخ وفى الوعى التاريخى . هذا وإن كان قد أفرد للنهضة الأوربية فى القرن الخامس عشر عصراً رابعاً مستقلاً ، وأضيف أخيراً ما سُمى بالتاريخ المعاصر . ولا ندرى ما سيكون عليه هذا الأمر فى روع الأجيال القادمة لمّا تقودها الحيرة إلى وضع تقسيمات تتماشى مع المتغيرات الفكرية الجديدة .

ولذلك فحجية التقسيم التاريخى مسألة جدلية مختلف عليها لاختلاف الرؤية وصعوبة تقسيم الزمن على نحو يؤدى إلى تصور تسجيلى محسوس للماضى السحيق . فالمؤرخون ونقاد التاريخ المحدثون أمثال بنديتو كروتشه Benedetto Croce الذى اعتقد أن فكرة الحقب والعصور لها قصد متعلق بأمور الذاكرة فحسب ، وروبين جورج كولينجوود Robin George Collingwood الذى رأى أن كتب التاريخ تبدأ وتنتهى على خلاف الحوادث التى تناولتها ...

أعلنوا من ناحية أن تقسيم التاريخ إلى حقب وعصور ما هو إلا تقسيم لمفاهيم ثلاثة كلها مترادفة ، وأن كل تقسيم على هذا النحو فى مواجهة استمرار الحوادث التاريخية إنما هو فى الأساس تقسيم غير تاريخى من ناحية أخرى ، لأن الحياة التاريخية لا تتحدد أبداً على خلاف الوجود الفردى تحديداً تاما . فحتى فى أكثر الثورات حسما ، وفى أكثر الانقطاعات الحضارية مضاء على فرض حدوثها ، لابد أن

تتوافر دائما قامة من الاستمرارية الشخصية والفكرية والنظامية يختلف حجمها ومداها ولكنها قامة نلمسها دائما عن كثب .

ولهذا الرأى وجهات نظر وردود معارضة ، لأنه إذا كان هناك على الدوام مسوغ لتأكيد الاستمرارية التاريخية ، إلا أن إطلاق هذا المفهوم ، كما قال فرانز جيورج ماير Franz Georg Maier فى مقالته عن التقسيم العام للعصور « Periodisierung, All-gemein » (فى عدد التاريخ Geschichte رقـم ٢٤ من معجم فيشر Fischer Lexi-kon فى طبعته التاسعة المنشورة فى فرانكفورت سنة ١٩٧٣ ، ص ٢٤٥ – ٢٤٧) ، لا يؤدى فحسب إلى اللعبة المضللة لتحريك حدود الحقب والعصور وإزالتها فى نهاية الأمر ، وإنما هو أيضاً لايقاس عموما على الحقيقة التاريخية ...

وعلى ذلك فتقسيم التقدم التاريخى تبعاً لهذا الرأى ليس مجرد تقسيم مفتعل ، وإنما هو أداء ضرورى لتجزئة مستودع التاريخ الهائل إلى قطاعات تكون فى المتناول ويمكن شمولها فى التصور . فهذا التقسيم منطبق بالأحرى مع عادة أولية توافق التاريخ كما توافقه الاستمرارية تمام الموافقة ، وصحيح أنه لا توجد فى انسياق هذه القطاعات واحدة تلو الأخرى لحظات من الفراغ والعدم ، ولكن توجد باليقين تغيرات يمكن إدراكها بوضوح ، وبين هذه التغيرات تكون الحقيقة التاريخية الكاملة مختلفة من حيث الجوهر والظاهرة وقوة التأثير .

وعلى أية حال فالقضية هنا مع هذه الأبعاد المختلفة خاضعة قبل كل شىء لوجهات النظر . ومهما كان الرأى فليس هناك فى الواقع معيار دقيق نتعرف من خلاله بنظرة ثاقبة على حدود قاطعة لتوالى الحقب والعصور ، وإنما هناك دائما ، كما قال أوبن H.Aubin فـى مقـالته عـن قضية التفريق بين العصر القديم والعصر الوسيط Die Frage der Scheide zwischen Altertum und Mittelalter (المنشورة فى المجلـة التاريخية ... Historische Zeitschrift ، عدد ١٧٢ ، أكتوبر سنة ١٩٥١ ، ص ٢٤٥ – ٢٦٣) ، تطورات عريضة ممتدة حادثة بقوة الدفع التاريخى وبالغة تمامها

على مدى زمنى معين ، وقد تكون وقائع سنوات بعينها حلقات دالة ومؤشرة من حلقاتها، ولكن من شأن هذه التطورات أن تؤدى فى النهاية إلى أشكال حياتية مغايرة تدعنا نتعرف على عصر جديد .

ويمكن أن نقول بعبارة أخرى ، تعليقا على رأى أوبن ، إن هناك دائما – إذا اعترفنا بهذه المسميات – فترة انتقال بين عصر وعصر وليس لحظة انتقال . فترة يتم فيها تفاعل ما بين مقومات حضارية متفقة أو مختلفة على نحو يمكن معه تتبع سير التاريخ وأيا كانت الطريقة التى يتم بها هذا التفاعل ...

فمن الضرورى وهو أمر بديهى لدراسة عصر من عصور التاريخ – أيا كان مسماه – فهم أحواله المصاحبة وأعماقه الزمنية والحدثية السابقة عليه للوصول إلى مواضع السببية والكيفية التى بدأ بها إذا كان قد بدأ . ولذلك يتوجب علينا إذا نشدنا هذا الفهم أن نطرح جانبا ذلك المنهج التسجيلى أو الروائى مع أهميته ودواعيه فى سرد التاريخ ، إلا فى حدود مقتضيات الدراسة النقدية بطبيعة الحال ، لأن المسألة ليست على مستوى البحث إضافة حقيقة أو أخرى إلى مجموعات الحقائق الكثيرة الماثلة أمامنا بقدر ما هى انتقاء للديناميات الحضارية التى تنقل المجتمعات الإنسانية من عصر إلى عصر آخر.

وكما قال ويليام كارول بارك William Carroll Bark فى كتابه عن أصول العـــالم الوسـيط Origins of the Medieval World (المنشور فى ستانفورد Stanford / كاليفورنيا ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٤) : « ليس المقصود هنا التاريخ للتاريخ ، وإنما المقصود فهم ذلك العالم الساحر المضطرب الذى تداخلت فيه الأنظمة والقيم القديمة والجديدة ، والذى قاد أوربا إلى عصورها الوسطى » .

أما جورج بيرتون آدامز George Burton Adams فقد أعلن فى مقالته عن مشاكل التاريخ الوسيط الحاضرة The Present Problems of Medieval History

(فى المجلد الثالث من أعمال مؤتمر الآداب والعلم International Congress of Arts and Science المنشور فى لندن ونيويورك سنة ١٩٠٦ ، ص ١٦٢ - ١٨٢) ، أن تاريخ أوربا منذ بداية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع قد تم بحثه بدقة متناهية حتى أنه يكاد يكون هناك اتفاق فى الرأى بين العلماء على جميع الموضوعات المهمة فى هذا الحقل .

ولكن هذه المقولة الصادرة من آدمز ، فضلا عما فيها من مبالغة ، لابد أن تفقد الآن سحرها بعد مرور ما يقرب من التسعين سنة تكشف خلالها كثير من الحقائق التى أضافها العلماء المتخصصون فى تاريخ القانون أمثال هاينريش ميتايس Heinrich Mitteis وفرانز فياكر Franz Wieacker ، ووجهات النظر المثيرة التى طلع بها المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون أمثال مارك بلوك Marc Bloch وألفونس دوبش Alfons Dopsch وهنرى بيرين Henri Pirenne وجونار ميكفيتز Gunnar Miekwitz وميخائيل إيفانوفيتش روستوفزيف Michael Ivanovitch Rostovzeff .

وعلى الرغم من أن هذا الرعيل من المتخصصين فى علوم القانون والاجتماع والاقتصاد لم يقدموا وجهات نظر شاملة يمكن أن يقبلها علماء التاريخ الدينى ونقاد الأدب دون تحفظ ، إلا أنهم أظهروا بآرائهم أن ما سبق الاتفاق عليه - على حد قول آدمز - أمر يتعذر الدفاع عنه .

ولذلك فهناك دائماً متسع من الوقت لمناقشة الدلالات النسبية لمختلف التطورات التى تفرقت فى تلك الفترة العصيبة التى حددها آدمز من تاريخ أوربا . ومن ثم يتبين لنا كلما تقدمت بنا الدراسة مدى الصعوبة التى تعترض الطريق في تحديد نهاية للعصور القديمة وبداية للعصور الوسطى تحديدا دقيقا .

وقد يبدو غريبا قول عالم مثل يوهان هالر Johann Haller فى كتابه عن ظهور

الجرمان فى التاريخ Der Eintritt der Germanen in der Geschichte (المنشور فى شتوتجارت Stuttgart سنة ١٩٤١ ، ص ٣٥) بأن هجرات الجرامنة لا تمثل فاصلا بين عصور مختلفة ، وأنه يجب علينا بالأحرى أن نعّود أنفسنا على أن نرى بين العصر الرومانى الأخير والغزوات الجرمانية الكبرى وعصر شارلمان وحدة لا تنفصم عراها . فهذا الرأى ، الذى ذهب إليه أيضاً بعض المؤرخين أمثال ادوارد ماير Eduard Meyer وفرديناند لوت Ferdinand Lot ، يفترض فترة انتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى من نحو خمسة قرون .

ورأي هالر هذا وإن بدا غريبا لا نستطيع رفضه ابتداء دون تمعن ، لأن طوابع العالم القديم بقيت ماثلة فى الواقع بمقدار أو بآخر حتى القرن الثامن بل وبعد ذلك . ولاسيما أن مؤرخي الفن مثل A. Riegel ومؤرخى الاقتصاد خصوصا دوبش سلموا باستمرار التطور الحضارى للعالم الرومانى حتى عصر شارلمان ، وإن كان تطوراً أخذ يسرى فيه وقع آخر . وتبدو هذه الاستمرارية أكثر ما تبدو فى الميل إلى توحيد البرامج التعليمية ، وفى أساليب الفنون التشكيلية التى تأثرت بطوابع الفن التجريدى فى دولة الروم ، وهى أساليب لايمكن وصفها بمقاييس العصور القديمة ولا بمقاييس العصور الوسطى الخالصة .

وكثيراً ما يشير المؤرخون إلى الطبيعة الرومانية الغالبة على الطبيعة الوسيطة فى مملكة الفرنجة فرنسا فى تلك الفترة الممتدة . وأيضاً أثبت شتروهيكر K.F. Stroheker فى مقالته عن الحدود الفاصلة بين العصر القديم والعصر الوسيط الغربى « Um die Grenze zwischen Antike und abendlaendischem Mittelalter » (المنشورة فى العدد الأول من مجلة Saeculum سنة ١٩٥٠) أن العصر الرومانى المحتضر بقيت ملامحه فى مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا حتى الفتح الإسلامى فى سنة ٧١١ .

وعلى أقل تقدير إذا وقفنا مع هؤلاء المؤرخين على الخطوط العريضة لحضارة

تلك القرون الممتدة بين حكم قسطنطين فى القرن الرابع وحكم شارلمان فى القرن الثامن ، يمكن فهمها إجمالا ، بعناصر وحدتها التى يُشار إليها من خلال الدراسة ، وإن صعب اعتبارها بكاملها بحكم طولها فترة انتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى ، على أنها قرون لها طابعها الخاص من حيث حوادثها وسريان أنماطها ... خصوصا إذا وضعنا فى الاعتبار علاقة الكنيسة بالحكومة . كانت الكنيسة حتى القرن الرابع قبل عهد قسطنطين الأول تصارع على وجودها وتثبيت دعائمها فى مواجهة السلطة الإمبراطورية التى لم تكن قد اعترفت بها حتى ذلك التاريخ . فكثيراً ماكان الأباطرة يضيقون عليها الخناق ويضطهدون رعاياها شكا فى أمرهم وعقيدتهم التى اعتبروها منذ البداية حركة باسم الدين لقلب نظام الحكم .

ولكن فى أوائل القرن الرابع بعد اعتراف قسطنطين الأول بالنصرانية ديانة من ديانات الإمبراطورية ، وبعد تنصره حسب رواية مؤرخه أوسابيوس Eusebius القيصرى (أسقف قيصرية Caesarea فى فلسطين) ، وبعد تقريرها ديانة رسمية للإمبراطورية فى عهد ثيودوسيوس الأول ... بعد كل هذه المواقف صار للكنيسة كيانها بصفتها مؤسسة دينية ، وإن بقيت خاضعة لسلطان الأباطرة ، الذين هيمنوا عليها وتدخلوا فى شؤونها ومنازعاتها المذهبية ، كما فعل قسطنطين وبدعوة الأساقفة أنفسهم لما ترأس مجمعها المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥ . وحذا حذوه وحذوهم أباطرة وأساقفة آخرون .

وكانت الإمبراطورية قد انقسمت كما أسلفنا بعد وفاة ثيودوسيوس فى أواخر القرن الرابع إلى إمبراطورية شرقية وإمبراطورية غربية . وفى منتصف القرن الخامس سقطت الإمبراطورية الغربية وتفككت لما غزاها الجرمان وأخذوا فى إقامة ممالك على أراضيها .

وكانت هذه الحوادث نقطة تحول فى موقف الكنيسة الكاثوليكية الممثلة فى

البابوية فى الفاتيكان . فلأن هوية البابوية كانت هوية رومانية ربطتها بكل ما هو رومانى وشائج التراث ، الذى صار الآن ، بعد ما كان تراثا وثنيا ، تراثا نصرانيا قائما على عقيدتها ومشكلا لمسارها القادم على ساحة التاريخ ... ولأنها اعتبرت نفسها وريثة الإمبراطورية الغربية بعد سقوطها ، فعليها واجب الحفاظ حتى على تراثها والتغنى بمجدها ، ومجابهة ملوك الجرامنة الذين قضوا عليها .

ولأن البابوية بحكم تكوينها معدومة القوة العسكرية ، كان لابد أن يكون دورها وقتذاك فى تصديها لهؤلاء الملوك الجرمان وصراعها معهم دوراً سياسيا تستخدم فيه السلطان والحيلة المستمدة من تجاربها السابقة فى صراعها مع الأباطرة الرومان . وكان صراعها فى هذه المرة ومنذ الآن – رافعة شعار السلطة الروحية – على زعامتها للشعوب الغربية التى تنصرت والشعوب الغربية الأخرى التى سيأتي تنصرها فى المستقبل باعتبارها جميعاً مجتمعا نصرانيا واحداً أولى خضوعه لأوامرها لا لسياسات الملوك .

ومن هنا كانت المنافسة والتحدى . ومن هنا نشب الصراع الضارى بين الملوك والبابوات ، بقدر ما كان يتمتع به كل ملك وكل بابا من خصال الكياسة والاستكانة وخصال الدهاء والعدوانية . وهو الصراع الذى عرفناه من قبل – وبالمصطلح المعهود – بصراع الملكية والإكليروس . وانساب من هذا الواقع الجديد تاريخ الغرب الأوربى الوسيط .

ولكن متى انساب هذا التاريخ ؟ متى وضحت بدايته ؟ كان من الممكن بعد كل ما قدمناه ومع هذا السؤال الصريح الآن أن ندلى برأينا ، وهو رأى لدينا عليه دليل من معايشتنا لأعمال لجنة معجم « كنز اللغة اللاتينية » Thesaurus Linguae Latinae ولجنة « قاموس اللغة اللاتينية الوسيطة حتى نهاية القرن الثالث عشر » Mittellateinisches Woerterbuch bis zum ausgehenden dreizehnten Jahrhundert بأكاديمية العلوم البافارية فى ميونيخ أثناء دراستنا للدكتوراة فى جامعتها فى الستينات لما كنا نتردد عليهما للبحث .

ولكن الأمر محتاج قبل ذلك إلى مزيد من الإيضاح للأحوال التى مر بها الغرب الأوربى فى الفترة الواقعة بين عصر الإمبراطور الرومانى قسطنطين وعصر الملك الفرنجى شارلمان ، وهى الفترة التى كانت كما شاهدنا موضع آراء بعض العلماء والمؤرخين ، لكى تظهر لنا شتى الجوانب التى تعيننا على فهم بداية عصوره الوسطى فهما أعمق .

الحقيقة أن مؤرخ الاقتصاد البلجيكى هنرى بيرين ، الذى أشرنا إليه ، نادى بالرأى نفسه الذى اعتقد من خلاله أن العالم القديم امتد بطوابعه الرومانية حتى عصر شارلمان . وظهر رأيه هذا فى كتاب شهير بالفرنسية هو عبارة عن عدة مقالات انتهى من جمعها فيه قبيل وفاته فى سنة ١٩٣٥ ونشره ابنه فرانسوا Francois وتلميذه فرنان فركوتيرن Fernand Vercauteren فى باريس سنة ١٩٣٦ بعنوان « محمد وشارلمان » Mahomet et Charlemagne ، وأعيد نشره لرواجه فى السنة التالية فى باريس وبروكسل . ولكن الجديد والغريب فى رأى بيرين أنه استطرد فى تفسيره قائلا دون سند تاريخى ، على الرغم من أستاذيته فى التاريخ الاقتصادى ، إن التدهور الذى أخذ يصيب الحضارة الغربية ، نتيجة للتوسع الإسلامى حسب ادعائه وفرض الحصار الإقتصادى على الغرب بعد سيطرة المسلمين على البحر المتوسط مما أثر على تجارته الخارجية وأوضاعه الاقتصادية ، وصل إلى منتهاه فى منتصف القرن الثامن .

ولا نحسب أننا قادرون على النظر فى قضية بداية العصور الوسطى دون التوقف عند رأى بيرين هذا ، الذى مثل – مع خطئه القادح – وجهة نظر محورية ، نظرا إلى الدوى الهائل الذى أحدثه فى أوساط المؤرخين على الرغم من توالى المؤلفات والآراء المعادية منذ زمن بعيد بتدبير الكنيسة بعد الفتوح الإسلامية وانتشار الإسلام ، والجدل الذى ثار حوله لفترة طويلة ، والرفوض القاطعة له التى أكدتها بحوث عدد حتى من تلاميذه وغيرهم من العلماء الأوربيين أنفسهم من أجياله اللاحقة ، الذين كالوا له النقد فى كل ما قال .

هذا فضلا عن أن تقديم رأى بيرين من شأنه أن يلقى ضوءا على المسائل المتعلقة بطبيعة العصور الوسطى وموضعها الزمنى فى التاريخ . كما أن مشكلة هذه العصور يمكن مناقشتها بدورها من بعض الجوانب فى إطار تفسيره ، لأن الضرر الذى أصاب الاقتصاد والتجارة الغربية فى البحر المتوسط فى زعمه بسبب توسع المسلمين ، وقع بصفة خاصة كما قال على فرنسا زمن حكم الميروفينجيين ، بل تعداه حتى إلى الأراضى المنخفضة .

ومناقشة زعم بيرين هذا وتبسيطه للحقائق التاريخية لابد أن تؤدى إلى دراسة أحوال فرنسا ، التى كانت فى الواقع مركز ثقل فيما حدث من تطورات داخلية لاصلة لها بالمسلمين ونجاحهم فى التجارة البحرية . وهى أحوال يُعين فهمهاعلى تتبع التحول الذى نقل الغرب الأوربى إلى حياة العصور الوسطى . ولكن هذا رغم أهميته القصوى ليس مجال الخوض فيه هنا فى هذا المقتطف ، وقد أفردنا له فى كتابنا فى هذا السياق موضعا آخر .

ولكن إذا عقدنا الصلة بين مقولة بيرين بدوام الطوابع الرومانية القديمة حتى عصر شارلمان ومقولة هالر بوحدة هذا العصر الشارلمانى مع العصر الرومانى الأخير والهجرات الجرمانية ، يبين لنا مدى الزمن الطويل للفترة التى حددتها هاتان المقولتان وهى نحو خمسة قرون كما ألمعنا .

وبقطع النظر عن أن وحدة تلك القرون الحضارية يمكن أن تكون رغم وجاهتها موضع نقاش ، فتحديدها على أن تكون فترة انتقال قد يستقيم من ناحية مع طبيعة التحول الذى طرأ على العالم الرومانى ، ولكنه لايستقيم من ناحية أخرى مع طبيعة الأمور إذا أردنا الإشارة إلى بداية واضحة للعصور الوسطى لا تختلط فيها الآراء . وقد يُدخلنا هذا التحديد فى الحلقة المفرغة من جديد . فلابد أن تكون هناك مرحلة ما فى هذا التحول حدثت فيها تغيرات جوهرية أخذ الغرب الأوربى من خلالها يجنح نحو حياته الوسيطة .

ولعل الأمر يبدو أكثر منطقية إذا تصورنا هذه الفترة المرحلية على مفترق القرنين السادس والسابع . وهو مايجعل القرنين الرابع والخامس من الوجهة التاريخية ضمن تاريخ العصر الرومانى الأخير . فقد شهد الغرب الأوربى منذ القرن السادس وحتى منتصف القرن السابع حوادث تاريخية محلية ودولية من شأنها أن تؤثر فيه تأثيرا جوهريا .

ومـن أهـم تلك الحـوادث المـؤثرة تأسيس اللومبارديين (اللنجوباردين) Lombards (Langobardi) فى إيطاليا سنة ٥٦٨ لآخر مملكة جرمانية تقام . وتولى البابا جريجورى الأول أسقفية روما فى سنة ٥٩٠ . وبداية إصلاح الدولة الرومية فى عهد هرقل الأول Heracles 1 الذى تولى الحكم فى سنة ٦١٠ . وظهور السلاف والآفار فى البلقان وقيامهم بأدوارهم التاريخية فى شرق أوربا المهددة للروم والغربيين ، مما حدا بالكنيستين الأورثونوكسية والكاثوليكية بعد ذلك إلى التنافس على تنصيرهم . والفتوح الإسلامية منذ سنة ٦٣٢ . فضلا عن التغيرات التى طرأت على فرنسا تحت حكم الفرنجة الميروفينجيين وكشفت عن حقيقة التحول الذى خطا به الغرب الأوربى نحو عصوره الوسطى .

ولعل ما ذهبت إليه لجنة الموسوعة اللغوية المشهورة « كنز اللغة اللاتينية » ، التى أشرنا إليها ، من التقديرات الزمنية التى وضعتها أساسا لعملها فى تقويم التراث الكلاسيكى الرومانى يتوافق مع هذا الاتجاه . فقد جمعت ما نُشر من هذا التراث ونظمته فى مكتبتها حسب الترتيب الزمنى لتواريخ المؤلفين وبأرقام رمزية متسلسلة ، معطية صورة دقيقة عن التطور الفكرى واللغوى فى العصور الرومانية الجمهورية والإمبراطورية .

والزائر لهذه المكتبة الفريدة فى نوعها ، وهى مزار مهم للمتخصصين والمعنيين بالدراسات الكلاسيكية ، يجد أن كتب التراث المحفوظة بها تنتهى بترتيب مؤلفيها بالكتّاب الذين عاشوا فى العقود الأخيرة من القرن السادس والعقود الأولى من القرن

السابع أمثال إيزيدور Isidorus أسقف أشبيلية Sevilla (المتوفى سنة ٦٣٦) الذى ألف فى شتى المعارف ومؤلفاته فى المكتبة برقم ٢٢٣ . وباودونيفيا Baudonivia راهبة بواتييه Poitiers ، التى كتبت فى نحو سنة ٦٠٠ سيرة الأميرة التورينجية (القديسة) راداجونده Vita Sanctae Radagundis وهى فى المكتبة برقم ٢٢٥ .

وهذا يعنى فى تقدير لجنة الكنز أن تراث النصف الثانى من القرن السابع خارج بصفة قاطعة من مجال التراث اللاتينى الكلاسيكى ومندرج فى مجال التراث اللاتينى الوسيط .

وإذا كان الأمر كذلك ، فقد كان من المتوقع أن تبدأ أعمال لجنة « قاموس اللغة اللاتينية الوسيطة حتى نهاية القرن الثالث عشر » ، التى أشرنا إليها ، من حيث انتهت أعمال لجنة الكنز ، أى من تراث النصف الثانى من القرن السابع ، أو حتى من تراث النصف الأول ، وخصوصا أن اللجنتين تعملان متجاورتين فى جناح واحد بأكاديمية العلوم البافارية فى ميونيخ ، وبينهما تعاون ووجهات نظر متبادلة .

ولكن نجد أن أول تراث أدخلته هذه اللجنة فى قاموسها للغة اللاتينية الوسيطة يعود إلى القرن السادس ، ويحتوى على الرسائل اللومباردية المجموعة Epistolae Langobardicae Collectae منذ سنة ٥٠٠ . وقوانين القوط الغربيين Leges Wisigothorum منذ سنة ٥٠٦ . ومجامع العصر الميروفينجى (الكنسية)Concilia aevi Merovingici منذ سنة ٥١١ . ورسائل ذلك العصر Epistolae aevi Merovingici منذ سنة ٥٢٤ . ورسالة نيقيطيوس Nicetius أسقف تريف Treves (المتوفى سنة ٥٦٦) إلى الملكة الفرنجية شلودوسفينتا Epistola ad Chlodoswintam reginam ورسالته إلى الإمبراطور جوستينيان Epistola ad Justinianum ..

ووثائق لوكسمبورج Chartae Luxemburgenses منذ سنة ٥٨٥ . والرسائل

القوطية الغربية Epistolae Wisigothicae منـذ سـنة ٥٨٦ . والاتفـاقيات الأنجيرية [اتفاقيات أنجير] {d'Angers} Formulae Andecavenses فى أواخر القرن السادس . ومقالة تشخيص الأمراض Prognostica المنقولة إلى اللاتينية عن مقالة منحولة إلى الطبيب اليونانى أبقراط Pseudo-Hippocrates ويحتمل أن تكون قد نُقلت فى القرن السادس (ويمتد الاحتمال إلى القرن الثامن) . وكتاب الألحان الميروفينجى Rhythmi aevi Merovingici (وبه ألحان العصر الكارولينجى من القرن التاسع) .

ورجعت اللجنة تبعا لذلك إلى مؤلفات القرن السابع معاصرة للأسقف إيزيدور الأشبيلى الذى وضعته لجنة الكنز فى العصر الرومانى الأخير ، وهى : القصيدة الغنائية Carmen التى نظمها ملك القوط الغربيين سيزيبوت Sisebut (us) نحو سنة ٦١٢ . وسيرة أو ألم ديزيديريوس أسقف فيين Vienne (فى فرنسا) Vita Vel Passio De- siderii episcopi Viennensis التى كتبها أيضاً هذا الملك الفيزيقوطى نحو ٦١٦ . والمؤرخات Chronicae التى كتبها نحو سنة ٦١٣ فريديجار المعلم Fredegar (ius) Scholasticus عن تاريخ الفرنجة (الميروفينجيين) ، وهى منحولة إليه فى بعض الروايات كما نرى فى عنوان طبعتها Chronicae quae dicuntur Fredegarii scho- lastici التى نشرها كروش B.Krusch فى سنة ١٨٩٦ فى مجموعة « معالم ألمانيا التاريخية » Monumenta Germaniae Historica فى المجلد الثالث من القسم الخاص بكتّاب التاريخ الميروفنجى Scriptores rerum Merovingicarum . واتفاقيات القوط الغربيين Formulae Wisigothicae من سنة ٥١٦ إلى سنة ٦٢٠ .

بل إن اللجنة استندت على قوانين من أواخر القرن الخامس هى : قوانين البورغونيين (البورجونديين) والقانون الرومانى Leges Burgundiorum, Lex Ro- mana . وقوانين القوط الغربيين ومقننة أويريش Eurich (ايورك) Leges Wisigoth- orum, Codex Euricianus التى جُمعت نحو سنة ٤٧٥ .

وهذا أمر طبيعى . فما ذهبت إليه لجنة كنز اللغة اللاتينية من ختم أعمالها

بمصادر من العقود الأولى من القرن السابع ، وما ذهبت إليه لجنة قاموس اللغة اللاتينية الوسيطة من بدء أعمالها بمصادر من القرن السادس بل أيضا من أواخر القرن الخامس ، لم يكن تحديدا قاطعا لعصر قديم وعصر وسيط بقدر ما كان عرضا لفكر قائم معبر عن واقع مستمر وأشكال لغوية فى سبيلها إلى التطور ، وتسجيلا تاريخيا للغة اللاتينية فى مراحلها المختلفة فى العصور الكلاسيكية والعصور الوسطى طبقاً للمناهج اللكسيكوغرافية (المعجمية) الموضوعية ..

لأنه من الصعب من ناحية أخرى تحديد الفروق فى المستويات الفكرية واللغوية فى القرنين السادس والسابع تحديداً قاطعا، ولاسيما أن مجتمع الغرب الأوربى كان فى ذينك القرنين ، ونتيجة لما حدث بعد إسقاط الجرامنة للإمبراطورية الغربية ونشوء ممالك جديدة تشابكت فيها الأنماط الحضارية الرومانية القديمة بالأعراف الجرمانية الوافدة ، يعانى ، واقفا على عتبة مدلهمة للمستقبل ، من ظروف اضطراب واحدة ، فكانت ردود فعله واحدة ، تسلسل التعبير عنها تعبيرا تداخلت فيه الرؤى وتداعى فيه البيان .

غاية ما فى الأمر أن لجنة قاموس اللغة اللاتينية الوسيطة كان عليها أن تختار نقطة ما للبداية ، وكان طبيعيا أن تنطلق هذه البداية من فترة كانت الأمور فيها مختلطة حتى لأصحاب النظرة الثاقبة .

ولعل هذا الازدواج الزمنى الذى كشفنا عنه فى اختيار اللجنتين يُظهر إلى حد كبير أن مراحل التحول الحاسمة التى نقلت غرب أوربا من عصوره القديمة إلى عصوره الوسطى قد انسابت على مدى القرنين السادس والسابع ، وأن حياته ، خصوصا بعد ظهور بوادر الإقطاع فى فرنسا الذى صار مغايرا لوقعها السابق . وما إن خطا فى نصف القرن السابع حتى صار يحيا حياته الوسيطة الحقة ، وإن بقى - وهذا أمر طبيعى - بعض المؤثرات الكلاسيكية .

وهذا الاتجاه فى وضع نهاية للعصور الكلاسيكية وبداية للعصور الوسطى فى

الغرب الأوربى على مفترق القرنين السادس والسابع وجد تأييدا من بعض علماء التاريخ القديم والدراسات الرومية والآثار أمثال كورنمان E. Kornemann وشتاين E.Stein وأوستروجورسكى G.Ostrogorsky ورودنفالت G.Rodenwalt .

وليس غريبا أن يقع التداخل بصفة خاصة فى النصف الثانى من القرن السادس ، لأنه كان فى الواقع فترة مهمة من فترات التحول لما صادفه من مظاهر ساهمت مساهمة فعالة فى تغيير الغرب .

فقد ظهر قبيل هذه الفترة بالذات دستور الرهبان البندكتيين الذى وضعه الراهب الإيطالى بندكت BENEDICTUS النورسى (من نورسيا Nursia) حوالى سنة ٥٣٠ على مبدأ العمل الفرجيلى الذى حث عليه قبيل الميلاد شاعر البلاط الرومانى المعروف فرجيل VERGILIUS فى ملحمة « الفلاحة » Georgica ترويجا لبرنامج الإصلاح الزراعى الذى نادى به الإمبراطور أغسطس AUGUS TUS لفلاحة الأرض وزيادة المحاصيل بعد بوارها نتيجة للحروب الأهلية المدمرة ونزوح الفلاحين إلى المدن سعيا وراء لقمة العيش ، « فالعمل الجاد يقهر كل شيء » labor vincit omnia labor improbus كما قال فرجيل . ذلك المبدأ الذى تبناه بندكت فى دستوره وتأسس عليه نشاط الأديرة البندكتية فى الحياة الاجتماعية فى العصور الوسطى تطبيقا لشعار العبادة والعمل orare et laborare .

وفى ظروف الاضطراب الذى حدث فى إيطاليا نتيجة لسقوط مملكة القوط الشرقيين (الأوستروقوط) Ostrogothi الجرمانية فى سنة ٥٥٣ ، ثم ضغوط الغزو اللومباردى الجرمانى لشمال إيطاليا الذى حدث بقيادة ملكهم ألبوين Alboin فى سنة ٥٦٨ ، أكدت الكنيسة مكانتها بتولى البابا جريجورى الأول أسقفية روما فى سنة ٥٩٠ فكانت أسقفيته انطلاقة إلى عالم جديد من المفاهيم الدينية والدنيوية .

ومع ذلك فاعتبار أسقفية البابا جريجورى من أسقفيات العصور الوسطى كما

نرى فى كتاب ددين F.H.Dudden عن مكانة هذا البابا فى التاريخ والفكر : Grego-ry the Great his Place in History and Thought (المنشور فى لندن سنة ١٩٠٥) لما قال إن روما عند وفاته (فى سنة ٦٠٤) كانت « روما الكنيسة والبابوات والعصور الوسطى » فيه مبالغة ، لأن فكره وإن لم يكن ممثلا حتما لفكرة الكنيسة فى العصر الرومانى الأخير ، لم يكن فى الوقت نفسه رغم عدائه الشديد للثقافة الكلاسيكية واللغة اللاتينية الفصحى منتميا بصفة أكيدة إلى الفكر الكنسى فى العصور الوسطى ، وإنما كان فكره صورة إن صح التعبير تداخلت فيها كل الألوان . ومع ذلك فمن الناحية التراثية تعتبر مؤلفاته من تراث العصر الرومانى الكلاسيكى الأخير ، وهى فى مكتبة لجنة كنز اللغة اللاتينية برقم ٢١٦ .

ولم يكن العداء للثقافة الكلاسيكية مجرد عداء عُرف عن البابا جريجورى ، وإنما كان الاهتمام بهذه الثقافة والتراث الكلاسيكى بصفة عامة قد فتر منذ زمن بعد إغلاق الأكاديمية فى أثينا فى القرن السادس سنة ٥٢٩ كما أسلفنا فى عهد الإمبراطور جوستينيان الأول ، مما كان له أثر سلبى على التعليم الذى صار تعليما تهيمن عليه الكنيسة .

وظهر هذا الأثر السلبى بصفة خاصة فى فرنسا التى تدهور فيها التعليم حتى وصل فى القرن السابع إلى أدنى مستواه كما نشاهد من الأغلاط اللغوية والإملائية التى حفلت بها المخطوطات والوثائق الميروفينجية . والتدنى الثقافى لعالم من فحول علمائها الغالوروما هو جريجورى أسقف تور Tours الذى ينم كتابه عن تاريخ الفرنجة His-toria Francorum ، بما حوى رغم أهميته من لغة لاتينية ركيكة وعفوية فى سرد الروايات الساذجة ، عن حضيض الفكر لدى المتعلمين .

ولم يعد هناك اهتمام ملحوظ بالفنون الأدبية فيما عدا الهجيوغرافيا Hagiographia (سير القديسين) ، التى يعتبرها البعض تواريخ شعبية ، وهى فى واقعها فن من فنون الأدب الشعبى لما حفلت بها من معجزات وعجائب ملحميه نبعت من وجد

رواتها ومؤلفيها المريدين . وقد عبر فريديجار المعلم في أوائل القرن السابع عن أسفه الشديد على ما وصلت إليه حال الثقافة والفكر فى بلده فرنسا ، وكانت عصر ذاك من الممالك الأوربية المرموقة ، من تردٍ يدعو إلى الأسى .

أما رهبان إيرلندا ، الذين لم يندرجوا فى حياة العالم الرومانى ، وأقاموا جسرا ثقافيا مع الروم ، واحتفظوا بمكتبات لروائع المؤلفات الكلاسيكية ، فكانوا على قدر كبير من الثقافة قياسا بإخوانهم هناك فى غرب القارة ، حتى أن بعضهم صار يتقن اللغة اليونانية التى كانت قد اندثرت هناك . ودفعهم هذا التردى الذى مُنى به العلم والثقافة فى فرنسا إلى السفر لإصلاح الكنيسة والتعليم وكان ذلك فى سنة ٥٨٥ بزعامة كولومبان Columban .

وهكذا بدأت أول حركة فكرية من نوعها فى الغرب الأوربى على أيدى هؤلاء الرهبان الإيرلنديين منذ أن أطاح الجرمان بالإمبراطورية الرومانية الغربية . وكانوا رواد الرهبان البندكتيين الأنجلوسكسون الذين واصلوا مهمة الإصلاح فى القارة فى القرنين السابع والثامن أمثال فيليبرورد Willibrord وفينفريد (بونيفاس) Wynfrid (Bonifatius) وفيليبالد Willibald . وكان لكل هذه الجهود أثر فعال بعد ذلك فى القرن التاسع فى بزوغ النهضة الكارولينجية (نهضة شارلمان) ، وبالتالى فى نهضة الكنيسة .

وهكذا كان دليلنا دليلا لغويا وفكريا مستندا على أعمال لجنة كنز اللغة اللاتينية (الكلاسيكية) ولجنة قاموس اللغة اللاتينية الوسيطة ، التى بان منها أن حدود التماس الزمنية بين العصور القديمة والعصور الوسطى فى الغرب الأوربى ، التى امتزجت فيها الرؤى ، كانت على مفترق القرنين السادس والسابع .

فاللغة بأطوارها المختلفة التى تُعين فى التحقيق كما هو معروف لها أهمية خاصة فى الدراسات التاريخية والاجتماعية . لأن مفاهيم المجتمع كما هو معروف أيضاً

تنساق وتتسق أبعادها باللغة . واللغة بدورها تتفاعل مع الحوادث والقضايا والإيديولوجيات فتنشأ مفردات جديدة مستحدثة تتعايش بها وبمفردات التراث مع مفاهيم المجتمع ، الذى قد تصبح لغة مثقفيه وأنصاف مثقفيه - بل أنصاف أميه - مثل العامة لغة عامية مؤشرة على التدهور الثقافى ، كما حدث تماما فى الغرب الأوربى منذ القرن الخامس لما أخذ المثقفون فى استعمال اللاتينية العامية (الشعبية) Sermo Lat-ina Vulgaris (Vulgar Latin) حتى صارت فى عصوره الوسطى لغة الكنيسة والعلم والثقافة والمعاملات .

وهكذا فاللغة بكل تفاعلاتها تعبر عن روح المجتمع وفكره وآماله وآلامه وأحلامه ، كما تدل مفرداتها ودلالاتها عن رقيه وأصالته وتقدمه كما تدل على تدنيه وانصياعه وتخلفه . وهي من علامات العصر مثل الحوادث والموضوعات المطروحة والقضايا .

وكتب القرنين السادس والسابع لم تعد تحفل كثيرا بالقضايا التى كانت تشغل بال المفكرين فى قرون النصرانية السابقة زمن وطيس الجدل والنقاش حول الآب والإبن والروح القدس . ففى منتصف القرن السادس بعد أن قضى نحبه فى سنة ٥٢٤ عالم اللاهوت الغربى بوئيثيوس (بويس) Boethius انتهت عصور آباء الكنيسة .. عصور اللاهوتيين الكلاسيكيين ... لأنه لم يعد هناك سبيل إلى نقاش جاد فى قضايا اللاهوت .

ولم يعد هناك والقرن السادس يغرب فى الغرب آباء كنسيون أمثال أمبروز-Am brose أسقف ميلانو ، وهيرونيم (جيروم) ناقل الكتاب المقدس ، وأوغسطين Augus-tine أسقف بونة صاحب كتاب « مدينة الله » De Civitate Dei . ولم يعد هنا فى الشرق آباء أمثال باسيلى (بازيل) Basil أسقف قيصرية كبدوكية ، ويوحنا ذهبى الفم Johannes Chrysostom بطريرك الكنيسة القسطنطينية ، وكيرلس الأول Cyril 1 بطريرك الإسكندرية .

فقد وهن الآن فى النفوس سحر الثقافة الكلاسيكية . ووهنت هنا وهناك حجج

الجدال حول أقانيم الثالوث المقدس . وانطفأ البريق هناك فى الغرب وتعثر العقل واللسان فى زحام الأحداث . وكان الغرب وقتذاك يعيش مفاهيم البابا جريجورى الذى سلط الخرافة على ربوع الفكر فى عالم عرف الفزع من المفاجأة والمجهول ، انطلقت فيه الشياطين والمردة من عقالها ، وانفرط عقد السكينة ، وهرع الناس إلى الأديرة لا للزهد والتقشف بقدر الخلاص من الوجل والأخطار والآلام والخطايا . ومنذ القرن السابع انعكست مثل المجتمع لهذه الفئات المقهورة فى سير القديسين فرارا فى المعجزة والعجيبة لتجلوا الجوانب المظلمة الخفية فى أحلام الناس .

فى هذه الأجواء المفعمة بالخوف والترقب هناك فى الغرب خطا القرن السابع فى التاريخ . وبدا كل شىء فى طريقه إلى الانهيار . لقد شهد هذا القرن أدنى مستوى وصل إليه الفكر هناك على مدى قرون . فمجرد الإلمام بمبادىء الحساب كان أمرا غريبا يدعو إلـى الدهشة . ومجرد انشاد أبيات من شعر فرجيل كان أعجوبة يتحدث بها الناس ، وضربت الخرافة أطنابها ..

لولا نسمة الفكر الجديد التى هبت من إيرلندا لما وفد على فرنسا كولومبان وشيد فيها فى مغيب القرن السادس ديره فى لوكسـوى Luxeuil فـى مقاطعة بورغونـى (بورجوندیا) Bourgogne (Burgundia) ليكون انطلاقة فى الغرب لأديرة أخرى جديدة امتزجت فيها روح الجماعة الفرنجية والإيرلندية ، ومعقلا لحركة الإصلاح التى أضاف إليها رهبان الأنجلوسكسون بعد ذلك دفعات كانت لها على مدى القرنين السابع والثامن آثار فى مجريات الأحداث ، ووقفت بفرنسا على عتبة النهضة الشارلمانية القادمة فى القرن التاسع . حركة التقى فيها النبلاء والعامة فى أديرة حررت العقول من عقدة الخوف لما وضعوا فيها برامج العلم والسياسة ، وعقدوا من جديد فكر الحضارة الكلاسيكية .

وإذا كان معظم المؤرخين قد اتفقوا على أن الفترة الممتدة من القرن الخامس حتى القرن الثامن تمثل العصور المظلمة Dark Ages فى تاريخ الغرب الأوربى لهبوط

مستواها الحضارى عما كانت عليه الحضارة فى العصور الكلاسيكية السابقة ، فقد رأينا كيف كان القرنان السادس والسابع مرحلة الهبوط الحقيقية والمنعطف الحاسم فى جنوح الحضارة فى تلك الفترة كما دلت مؤلفات الغالورومان . ومع ذلك انتفض التاريخ فى ذينك القرنين بكل ما حمله الغرب على أرضه من بشر وفكر ومشاعر ليصحو على عصوره الوسطى بلا جدال .

وهانحن نرى أمهات الكتب فى تاريخ الأدب اللاتينى فى العصور الوسطى تبدأ من القرن السادس . وقد يقدم مؤلفوها بالقرن الخامس لتبيان الوحدة الفكرية الآخذة فى التحول . وهذا على خلاف كتب التاريخ الوسيط التى تفرض طبيعة الأمور على المؤرخين العودة فيها إلى وقائع الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الرابع ، بل ومنذ القرن الثالث لكشف الأزمة الحادة التى كانت لها الآثار المشهودة فى تفاقم أوضاعها ، وأطوار التغيير الشامل على ممر تاريخها القادم ، بعد أن ابتليت بالزحوف الجرمانية وحكم الأباطرة العسكريين .